آفاق

ملحق أسبوعي يصدر عن صحيفة 14 أكتوبر مرتين في الشهر مؤقتاً بالتنسيق مع مركز سبأ للدراسات الاستراتيجية

الثلاثاء - 15 فبراير 2011 - العدد 15085

Tuesday -15 February 2011 - Issue 15085

الإسلام وأوروبا:

شدّ وجذب وآفاق مُلبّدة

محمد عبده

محمد الدعمي

يذهب مؤرخو الثقافة العربية الإسلامية الحديثة إلى أن انهيار الدولة العثمانية شكّل نقطة البداية بالنسبة للعديد من الدول العربية والإسلامية باتجاه الاستقلال، مميزين بين ثلاثة تيارات فكرية رئيسة لعبت الأدوار الأهم والأكثر حسماً لملء الفضاء الأيديولوجي الناتج والمؤمل عليه لتشكيل تاريخنا المعاصر، وهي: التيار الإسلامي؛ والتيار القومي؛ والتيار اليساري أو الشيوعي. وإذا لم نكن نختلف كثيراً مع هذا الوصف لجغرافيا الثقافة السياسية العربية الإسلامية على أعتاب القرن الماضي، فإن لنا أن نستذكر كيف تناقضت هذه التيارات الثلاثة ثم تصارعت على نحو دموي في حالات عدة على سبيل إحراز التفوق الجماهيري أو الأرجحية الشعبية.

وبغض النظر عن هذه الصراعات والخصومات الفكرية والتحزبية بين التيارات الثلاثة الرئيسة، للمرء أن يتأمل: ماذا لو أنها تعايشت وتلاقحت ثم تناسلت وتكافلت، ما دامت الأهداف النهائية لها جميعاً متطابقة، وهي: الاستقلال والتحرر والتقدم؟ لم يحدث هذا التفاعل الإيجابي، بل إن معاكسه هو الذي حدث، حيث راحت هذه التيارات، ممثلة في أحزاب سياسية، تتبادل الاتهامات وتختزن الضغائن فيما بينها بدلاً عن التعاون والتضامن أو التكافل السياسي، الأمر الذي قاد إلى الكراهية درجة شطب الآخر وإزالته إن أمكن.

لقد تبلورت هذه التيارات أصلاً كاستجابات فكرية للهجمة الكولونيالية الأوروبية باتجاه العالم العربي الإسلامي، على سبيل تقسيم أو تقاسم تركة الدولة العثمانية، الأمر الذي يفسر مآسي العالم العربي منذ معاهدة سايكس - بيكو حتى اللحظة.

لقد عمد التيار القومي إلى تسفيه التيار الديني باعتباره تياراً رجوعياً يمكن أن يتحالف مع الاستعمار أو مع الإمبراطوريات الأوروبية (الفرنسية والبريطانية)، من أجل البقاء وتحقيق أهدافه.

لم يكن هذا صحيحاً، لسوء الطالع: فتأسيساً على أهم آليات التطور والتغير في تاريخ البشرية، وهي آلية المحفزات والاستجابات stimuli and responses علينا أن نسلم أن المتصدي الأول للغرب الأوروبي كان إسلامياً وليس قومياً، إن عربياً أو فارسياً، هندياً أو تركياً طورانياً، أو أفريقياً. لقد أدركت الكولونياليات الأوروبية منذ وقت مبكر أن الأديان في الشرق عامة، وفي الشرق العربي الإسلامي خاصة، إنما تمثل العمود الفقري للكينونة الاجتماعية ومن ثم السياسية عبر وظيفتها المرتكنة إلى مجموعة مبادئ أخلاقية وسلوكية ومن شواخص تاريخية. لذا حاول البريطانيون، بكل ما أوتوا من حنكة ودقة، تحاشي الاحتكاك بالإسلام، نظراً لأنهم لاحظوا قدرات هذا الدين التعبوية من خلال تجارب عدة، أهمها دور العلماء في إيران، خاصة بعد تجارب الاحتكاك بالعالم الغربي (لاحظ مشكلة التنباك ومقاومة هذه الفئة الاجتماعية المهمة لهذا المستورد، الذي نُظر إليه وكأنه الكحول أو المخدرات في مخاطره). ومن ناحية ثانية، لاحظ البريطانيون من بناة الإمبراطورية كذلك سرعة انتشار الإسلام بين الأمم الأفريقية جنوبي الصحراء الكبرى درجة ضرب الرعب في قلوب رجال الكنيسة الإنكليكانية الذين كانوا يعتقدون أن المبشرين من رجال الدين يجب أن يسبقوا الجنود إلى مثل هذه البلدان الفقيرة.

لقد كان التنافس الإسلامي المسيحي على أفريقيا في القرن التاسع عشر وما قبله على أشده حقبة ذاك، ملقناً البريطانيين دروساً لن ينسوها في أهمية الإسلام ومكانته، تقليداً روحياً ونظاماً اجتماعياً في حياة الشعوب التي تعتنقه. لذا كان بناة الإمبراطورية البريطانية أكثر دقة وحذراً من سواهم في تعاملهم مع الإسلام (مقارنة بالإيطاليين والإسبان والبرتغاليين والفرنسيين) على نحو يقدم هذا الدين على سواه من أديان الشرق كالهندوسية أو البوذية، من بين أديان أخرى.

لاحظ أن الفكر القومي الذي اعتمد فكرة العرب والعروبية حاول تشويه الفكر الإسلامي كي يفلح في الانتصار على الإسلاميين على الساحات العربية: فإضافة إلى الادعاء بأن الإسلاميين متحالفين ومتفاهمين مع بريطانيا وفرنسا، مع الرجوعية المحلية والإقطاع، راح المنظرون القوميون، متعمدين وتعسفاً، يحاولون الإقلال من شأن الثورات والتمردات ذات الهوية الإسلامية ضد القوات البريطانية في الهند وفارس وفي سواهما من بقاع العالم الإسلامي العريض.

لقد كانت التهمة الأساس التي أطلقها القوميون واليساريون ضد التيارات الإسلامية هي تهمة "الرجعية" أو الرجوعية والقبول الضمني بالشرور المحلية كالخرافات والروحانيات والإقطاع إلى آخر هذا المنطق المجافي للحقيقة، مستحضرين شرور الإمبراطورية العثمانية دلائل على جدلهم.

أما تهمة التيار الماركسي أو اليساري، فهي أنه كان تياراً فكرياً مستورداً من الخارج، لا يصلح للعالم العربي الإسلامي بسبب أن مؤسسيه كانوا ألمانا وبريطانيين، قياساتهم محدودة بالمجتمعات الأوروبية الباردة.

لقد أجمع القوميون واليساريون على اتهام الإسلاميين بالرجعية والسلفية والماورائية والغيبية؛ إلا أن الحقيقة، كما يبدو، كانت مع التيارات الإسلامية التي اتهمت القوميين والشيوعيين بالاستعارة المتعامية من الغرب على سبيل التطبيق التعسفي (الفوقي) على الأراضي والشعوب العربية الإسلامية المختلفة تماماً عن العالم الأوروبي المسيحي، الآري الرأسمالي.

التيارات الإسلامية كانت هي الأكثر حساسية في الاستجابة للحوافز الأجنبية الكولونيالية الأوروبية. لذا حاول نابليون بونابرت تسكين حساسية الإسلام حال نزوله القاهرة وهو يرى مجده متألقاً من على أهرامات الجيزة، بأن ادعى اعتناق الإسلام، ناهيك عن مثابرته التردد على إحدى الزوايا الصوفية في القاهرة، وهو يضع على رأسه عمامة إسلامية متراقصاً على اللحن الصوفي: "مدد، مدد، يا سيدي أحمد يا زكيري"! لقد دلنا الغربيون قبل أن ندل أنفسنا إلى مواضع القوة والضعف في صفوفنا.

أما الحركة القومية، فقد كانت هي الأخرى (في العالم العربي وفي تركيا وفارس كذلك) من تشظيات محاكاة العالم الغربي الذي كان يعيش آنذاك العصر الذهبي لمفهوم الدولة القومية بعد حركة الإصلاح الديني التي قادها مارتن لوثر Reformation، من ألمانيا إلى إيطاليا، ومن إيطاليا إلى فرنسا ثم إلى العالم المسيحي بأسره.

لقد باشرت الحركات القومية العربية، خاصة، دورها التاريخي من خلال محاكاة نوع من أنواع الشوفينيات الآرية (بغض النظر عن النظرة الدونية نحو العرب من قبل أصحاب الأسطورة الآرية): "ألمانيا الفتاة" أو "إنكلترا الفتاة" Young Englandism على سبيل الخروج بحركات من نوع "تركيا الفتاة" و"العربية الفتاة"، وكلاهما حركات فاشلة لا تزيد عن ردود فعل ضد سياسة التتريك ذات النزعة الطورانية العثمانية.

لقد كان السبق الحقيقي نحو الاستقلال وتكوين شخصية محلية تعتد بنفسها وبإرثها الثقافي هو للحركات الإسلامية، ابتداءً من عصر السيد جمال الدين الأفغاني ومريده الشيخ محمد عبده (رحمهما الله) وانتهاءً بالحركات التنويرية المعتدلة الأخرى (كحركة الإخوان المسلمين) التي استحضرت روح الإسلام نظاماً اجتماعياً وعقيدة ترفض الاستعمار وتدعو إلى الوحدة والتكافل والأخوة بين الجميع.

تشير كتابات بناة الإمبراطورية البريطانية، كتلك التي قدمها اللورد ماكولي(Lord Macaulay 1800 - 1859)، الذي عمل إدارياً إمبراطورياً لبريطانيا في الهند، إلى أن هؤلاء الرجال الأكثر معرفة بشؤون الشعوب الشرقية كانوا يدركون أهمية الإسلام وخطورة توظيفه سياسياً ضد الاستحواذ الإمبراطوري والوصاية الأجنبية: فبعد عدد من الثورات الإسلامية الكبرى ضد الاحتلال البريطاني في شبه القارة الهندية (وليس في العالم العربي)، لاحظ البريطانيون ما يلي:

(1) أن الإسلام لا يختلف عن اليهودية والمسيحية في أنه جزء أو تواصل للتقليد الروحي التوحيدي Judaeo-Christian tradition الذي يمكن أن نتتبعه إلى أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم (عليه السلام) المولود في أور جنوبي العراق.

(2) أنه، ديناً ونظاماً اجتماعياً، لا يمكن أن يقبل الهيمنة الأجنبية وظلم الإنسان لأخيه الإنسان، الأمر الذي يفسر تفضيل اللورد ماكولي، بصراحة واضحة، الإسلام على الهندوسية وعلى سواه من الأديان غير المنزلة المنتشرة في شبه القارة الهندية وما جاورها.

من هنا كان الإدراك البريطاني المتعمق بأهمية الإسلام وقدراته على التوليد في دواخل أمم كبيرة، إدراكاً قوياً ومؤثراً في تشكيل سياسات الإمبراطوريات الأوروبية، الأمر الذي برر البحث البريطاني الدؤوب والاستغفالي عن "صيغ إسلامية" يمكن أن تتعامل مع الإدارة الإمبراطورية ويمكن أن تقبل بوجودها، وتمرر هذا القبول على الكتل البشرية المهولة التي تعتنق الإسلام في دول كبيرة كالهند وفارس وإندونيسيا وماليزيا، من بين دول كبيرة أخرى. هنا جاءت فكرة "القاديانية"، وهي صيغة دينية "إسلامية" أسسها وبشر بها رجل دين ينتمي إلى قرية قاديان الهندية. هذه الصيغة تختلف عن الإسلام "الراديكالي" (أو حتى المعتدل) المسئول عن الثورات والتمردات المتعددة في الهند ضد البريطانيين في أنها كانت تستمرئ التعامل مع المحتل البريطاني على أساس أن بريطانيا إنما هي عامل يدفع نحو التقدم والحضارة، وباعتبار أنها تحترم الإسلام ولا تريد الاحتكاك به أو الاختلاف مع عقائده في أي موقع ومناسبة كانت. وهنا حاول البريطانيون تطوير "نخبة" من الشباب المسلم الهندي المتأثر بالفكر الغربي العلماني على سبيل الخدمة كحلقة وصل بين فقراء الهند والتاج البريطاني.

لقد كانت هذه الادعاءات صحيحة بحق، ذلك أن بريطانيا وبناءً على تجربتها الأعمق، من التجارب الفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية، غالباً ما عمدت إلى اعتماد إدارات إمبراطورية أو انتدابية تعمل على أساس عدم الاحتكاك بالمسلمين خاصة، من بين معتنقي الديانات الشرقية الكبرى. هذا بكل دقة ما يفسر أصول الخوف البريطاني من الإسلام كمولد للتمردات وللثورات عبر بقاع الإمبراطورية التي لم تكن الشمس لتغرب عنها.

لذا عمد العلماء والمتخصصون البريطانيون الذين بنوا تلك الإمبراطورية، ليس إلى الإقلال من شأن الإسلام والمسلمين كما فعل آخرون من بعد؛ بل إلى رصد الإسلام ودراسته بطرائق علمية من أجل التعمق في مدارسه الفقهية وتشعباته الطائفية التي لم تزل فاعلة حتى اللحظة، الأمر الذي يفسر نجاح بريطانيا في تجنب استفزاز الإسلام والمشاعر الدينية لدى الشعوب التي تعتنقه والتي كانت جزءاً من الإمبراطورية البريطانية (لاحظ، أن البغاددة حسدوا أهل البصرة سنة 2003 باعتبار أن البريطانيين كانوا هم القائمين على البصرة وهم الأكثر تفهماً وإدراكاً لتقاليد الإسلام، مقارنة بالأميركيين الذين فرضوا سيطرتهم على بغداد والموصل وما تبقى). ومقارنة بفرنسا، كانت بريطانيا أكثر حنكة وبعد نظر في هذا الحقل، الأمر الذي يفسر نجاح الأكاديمية البريطانية في بناء أكبر أرشيف إسلامي: من دراسات ومخطوطات وكتب ومعارف، وهو أرشيف لم يزل حياً في المتحف البريطاني وفي مكتبته التي لم يزل يتردد عليها العلماء والباحثون دون كلل أو ملل، ودون قدرة كافية على تغطية محتوياتها الكثيرة حتى اللحظة.

الفرنسيون، برغم محاولات الجنرال بونابرت ادعاء اعتناق الإسلام، لم يكونوا بنفس درجة الحنكة والدقة البريطانية في حدود التعامل مع الإسلام والمحافظة على مسافة أمينة كافية بين الإمبراطورية وبين مشاعر وطقوس أتباع هذا الدين الحنيف. تنطبق ذات الحال على الدول الأوروبية التي لم تكن تبني إمبراطوريات كبرى في آسيا وأفريقيا، مثل ألمانيا وسويسرا والدانمارك وهولندا وفنلندا وايرلندا، من بين دول أوروبية أخرى. لذا كانت هذه الشعوب أو الدول أقل معرفة بالإسلام وأضعف وعياً بطاقاته التثويرية المهولة، الأمر الذي يفسر عدم الاكتراث أو عدم تجنب الاحتكاك بمشاعر المسلمين.

بالنسبة للشعوب أعلاه، من غير البريطانيين والفرنسيين، المسلمون هناك لا يزيدون من كونهم فوائض سكانية فقيرة قادمة إلى أوروبا للسخرة وللعمل وحتى للعبودية. هذا ما يفسر الطرائق الدونية التي تعاملت بها مثل هذه الدول مع المسلمين ومع الإسلام عبر تواريخها، وهي طرائق دونية مشحونة بالنظرة الاستعلائية الفوقية للإسلام وللشعوب الإسلامية التي طالما مثلت كشعوب بدائية تؤمن بدين يُقدس العنف ويمجد تعدد الزوجات واستغلال المرأة واضطهادها.

إن مستقبل العلاقة بين الإسلام والمسلمين، من ناحية، والعالم الغربي (أوروبا خاصة) من الناحية الثانية، لن يكون مستقبلاً سكونياً هادئاً، برغم محاولات مدّ جسور التفاهم والتعاون على أنواعها (لاحظ دلالات رابطة البحر المتوسط)، إذ أن الشعور الشعبي الأوروبي بالضيق من المسلمين ومن تقاليدهم الغريبة على ثقافة أوروبا لا يمكن أن تكسبهم للإسلام بقدر ما أنها ستدفعهم للتنافر مع الإسلام، خاصة وأن هذا التنافر يجري ويشجع من قبل السلوكيات العدائية للراديكاليين الإسلاميين المنطوية على كراهية العالم المسيحي، التي تقدمها الحركات الراديكالية الإسلامية، كمنظمة القاعدة، حيث تعمق هذه الحركات من خلال تطبيقات عنيفة وقاسية حال الخوف من الإسلام وأهله Islam phobia في أوروبا عامة وعبر العالم الغربي خاصة. لذا، للمرء أن يتوقع المزيد من نقاط التماس وربما الاحتكاك بين الشعوب الأوروبية وبين الجاليات العربية المسلمة التي ذهبت إلى أوروبا طلباً للعمل وللحريات وللكرامة!

هذا الشيء لم يحدث في بريطانيا، أي لدى "أبو ناجي"، وهو المرادف العامي العراقي لتعبير John Ball ، كناية عن الإمبراطورية البريطانية! ربما كانت هذه النظرات ذات دلالة في تفسير عدم تجنب الاحتكاك بالإسلام والمسلمين عبر دول أوروبية عدة (سوى بريطانيا). ولكن الأهم من هذا كله، برأيي، هو نقص المعرفة الأميركية التي لا يمكن أن ترقى قط إلى مستوى المعرفة البريطانية بالإسلام. لذا توجب على واشنطن استعارة الذاكرة الإمبراطورية البريطانية والأرشيف العلمي والأكاديمي والإنثروبولوجي البريطاني ودراستهم من أجل فهم أدق وأنقى للإسلام: عقائده وشعوبه ومستقبله.

إن أوروبا التي شعرت بالاختناق في العصر الوسيط بسبب الطوق الإسلامي المحيط بها، تشعر اليوم بذات التحدي الفقهي والعسكري، ليس من خلال الإحاطة الجغرافية الخانقة فقط، بل كذلك من خلال شعورها بابتلاع "جرعة سكانية مسلمة" أكبر مما هي قادرة على تحمله أو على هضمه ومن ثم استهلاكه.

باحث وأكاديمي عراقي

نابليون

استخدام السيفون الحديث في المنزل

يستهلك 6 لتر من الماء، مقابل 15 لتر للقديم

Water in Yemen 2011

مؤسسة 14 أكتوبر للصحافة والطباعة والنشر

SHEBA CENTER FOR STRATEGIC STUDIES مركز سبأ للدراسات الإستراتيجية